

أزمة العدالة

إنه عالم فرنسي يعود إلى عالم النور والحرية ، بعد سنوات أربع قضاها في ظلام المعتقل ، احتمل فيها أغلال الجسائب الحديدية في مرارة وصبر وعناد . تقام له حفلة تكريم في السربون ، مهده العلم . ومعبد الحرية الفكرية ، والهيكل الذي تقدس فيه حقوق الأفراد ، فلا يحدثا العالم الشيخ عن تجبر النازي ، ولا يفضى إلينا بفظائع معسكرات الاعتقال ، إنه ينسى آلامه وأوجاعه ولا يعود يذكر غير المأساة الانسانية ، والكارثة العالمية : الحرب . دليل إخفاق البشرية وعلامة حمقها . ثم يحاول تلمس علما ، ويضع إصبعه عليها : افتقار العالم إلى العدالة . يرجع الجروب إلى تطور العلم تطوراً أدهشنا سرعته ، ومهزتنا فتوحه ، وقصور العدالة في نفس الوقت عن اللحاق بالعلم في تقدمه السريع . العلم يقفز قفزات طويلة سريعة ، ويخطو خطوات حثيثة كلها ثقة بل تمرد وتبجح ، بينا الأخلاق والعدالة تتعثر في سيرها ، وتتلصصاً وترتد إلى الهمجية والانانية في كثير من الأحيان .

وقد صدق العالم في تشخيص الداء الذي يلج على الانسانية ، والعللة التي تفسد علما الحياة وتحرمها من الأمن والطمأنينة . نحن في أزمة ، أزمة عدالة قوامها الظلم واستغلال القوى للضعيف ، واستسلام الضعيف لحكم القوى وتجبره . تلك هي الأخلاق السائدة في المدن والدول ، وهي نفسها الأخلاق السائدة بين الدول في علاقاتها المتبادلة : تحكم وطغيان من جانب ، واستكانة وخضوع من جانب آخر . أزمة أصابت الظالم والمظلوم ، كلاهما مجرم في حق الانسانية فلا تبرئ المظلوم ، وصدق من قائل «لولا من يقبل الجور لم يكن من يجور» .

يحدث هذا الفساد والعطب والتعثر في مجال العدالة بينا العلم يفتح كل يوم آفاقاً جديدة ، ويزودنا في كل لحظة بكل عجيب من الاختراع ، في حين أن فكرة العدالة لم تتغير تغيراً كبيراً عما كانت عليه في العصور الوسطى ، عصور الظلم والظلام والفرقة الشاسعة بين الطبقات . فلما سرى العلم في عقول لا تنيرها العدالة الحقيقية ، وفي أذهان لا تهتدى بالقلوب المفعمة بأنبال العواطف ، وقعت الكارثة وأصبحت المدنية مهددة بدمار ساحق . وما كانت لل المدنية أن تقف على قدميها ، إن كانت مجرد أفكار باردة ومعارف جافة

خالية من محبة الخير للإنسانية . وما كانت لل المدنية أن تواصل سيرها إن كانت حكرراً لفئة دون أخرى ، أو وفقاً على نفر قليل لا يرعون للإنسانية حرمة . ولا بد للعلم أن ينحرف عن غايته الأصلية ، وهي إسعاد المجتمع البشري ، إن كانت كشوفه وفقاً على عقول لا تهتدى بفكرة العدالة الحقيقية .

من أجل هذا كان العالم في مسيس الحاجة إلى علماء مستعدين لوضع قواهم ومواهبهم وجهودهم في خدمة العدالة ، ليس هذا فحسب بل أن يكون نتاج قرائحهم ملكاً للشعوب جميعاً ، وأن يكون لمكتشفاتهم سدنة لا غرض لهم ولا هوى إلا إسعاد الانسانية البائسة .

وكيف يكون ذلك ؟

يكون ذلك بتطبيق أحدث الأساليب والمناهج العلمية في علاج مشكلات المجتمع والسياسة والاقتصاد ، فنرجع العلل إلى أسبابها الحقيقية . لا إلى أسباب خرافية خفية ما أنزل الله بها من سلطان ، بعد فحص وملاحظة وتجريب ، وتناول مشكلات الحياة الخاصة تناول العالم لمشكلات معمله أو مخبره ، إذ يطبق المنهج العلمي الذي لا يتقيد بوهم أو خرافة أو عاطفة ، ويتجلى بالروح العلمية السمحة التي لا تعرف تحيزاً ولا تفر غير منطق الواقع .

أيتها الانسانية الحقا : حذار من ضياع العلم فقد يستحيل لهيباً محرقاً إن لم يكن ملكاً مشاعاً للشعوب التي لا نبغي غير العيش في أمان وسلام . حذار من اللصوص الذين يسرقون نتاج قرائحكم ليستضيئوا هم به ويحرقوكم بلهيبه وليقر في أذهانكم قول الفيلسوف فرنسيس بيكون :

« إن الناس ثلاثة : رجل يطمع في أن يسيط سلطانه على أمته وهو أوضع الثلاثة ، ورجل يطمع في أن ينشر نفوذ أمته على أمة أخرى وهو أرقى من الأول ، ورجل يطمع في أن يجعل الجنس البشري سيد الكون وهو أشرف الثلاثة . »

لن نجحنا في جعل منتجات العلم في حراسة من يطمع في أن يجعل الجنس البشري سيد الكون ، لا في حراسة من يطمع في أن يسود الجنس البشري ، حينئذ تنفجر أزمة العدالة ويتعاقب العلم والأخلاق في سبيل أمان دائم وسلم مقيم .

عبد المنعم عبد العزيز الملحمي

مدرس الفلسفة بحلوان